

الفصل الحادى والعشرون

السرايا بين سرية مؤتة وغزوة فتح مكة:

المبحث الأول: سرية ذات السلاسل:

بعد عودة سرية مؤتة إلى المدينة بأيام قليلة، وبالتحديد في جمادى الثانية من سنة ثمان هجرية كما ذكر ابن سعد^(١)، بلغ الرسول ﷺ أن قضاة بدأت تتجمع مرة أخرى تريد الدنو من المدينة، فأرسل إلى عمرو بن العاص، فلما جاءه قال له: «... إني أريد أن أبعثك على جيش فيسلمك الله ويغنمك، وأرغب لك من المال رغبة صالحة»، فقال له عمرو: «يارسول الله: ما أسلمت من أجل المال، ولكن أسلمت رغبة في الإسلام وأن أكون مع رسول الله ﷺ»، فقال ياعمرو: «نعم المال الصالح للمرء الصالح»^(٢). ثم بعثه في ثلاثمائة من المهاجرين والأنصار ليقتضي عليهم في ديارهم، وأمره أن يستعين ببعض فروع قضاة من بليّ وعذرة وتلقين على ذلك العدو، لأن أم عمرو كانت من بلي، وفي ذلك استئلاف لهم. وعندما وصل في مسيره إلى ماء بارض جذام، يقال له السُّلْسَل - وبه سميت السرية - بلغه كبر جمعهم، فأرسل رافع بن مكيث الجهني إلى الرسول ﷺ فأمدته بيائتين من المهاجرين والأنصار عليهم أبو عبيدة عامر بن الجراح وفيهم أبو بكر

(١) الطبقات (١٣١/٢) بدون إسناد فهي ضعيفة جدا.

(٢) رواه أحمد في المسند: الفتح الرباني (١٤٠/٢١ - ١٤١) بإسناد صحيح من مرسل غامر الشعبي. وانظر من خرجته عن ذكرهم الساعان. وقال ابن حجر في الفتح (١٩٦/١٦) شرح الحديث (٤٣٥٨)، عن هذا الحديث: «وروى أحمد والبخاري في الأدب وصححه أبو عوانة وابن حبان والحاكم من طريق علي بن رباح عن عمرو بن العاص، قال: «...» وساق الحديث بمثل ما أثبتناه هنا.

وخبر إرسال عمرو بن العاص على سرية ذات السلاسل ثابت في الصحيحين ولكن بدون تفاصيل كما عند أهل المغازي والسير. انظر البخاري/الفتح (١٥٨/١٦) ك. الفضائل/ب. فضائل أبي بكر/ح (٢٣٨٤).

وعمر، وطلب من عمرو وأبي عبيدة أن يتطوعا. وعندما أصر عمرو على تولي الإمامة في الصلاة، لم يرد أبو عبيدة أن يخالفه في هذا امتثالا لوصية الرسول ﷺ^(٣).

وفي حديث أحمد^(٤) أن النبي ﷺ استعمل أبا عبيدة على المهاجرين وعمرو ابن العاص على الأعراب، وأمرهم بالإغارة على بكر، فانطلق عمرو فأغار على قضاة لأن بكرا أخواله، فأطاعه أبو عبيدة، ولم يخالفه أبو عبيدة في ذلك لأنه لم يرد الخلاف. ويستبعد هذا التعليل الذي ساقه الشعبي.

وسار عمرو بالناس حتى وطىء بلاد بلي ودوخها، حتى أتى أقصى بلادهم وبلاد عُدْرَةَ وبلقين، ولقي في آخر ذلك جمعا، فحمل عليهم المسلمون، فهربوا، فعاد بعد هذا إلى المدينة^(٥).

وفي طريق العودة احتلم عمرو في ليلة باردة فتيّم ولم يغتسل غسله للجناية، خشية البرد، مستندا إلى قوله تعالى: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما﴾^(٦). ثم صلى بالناس، وقد أقر الرسول ﷺ هذا الاجتهاد منه^(٧).

وعندما أصابهم برد أمرهم عمرو بالا يوقدوا نارا ولا يتبعوا العدو، واعترض بعض المسلمين على ذلك، وعندما شكوه إلى رسول الله ﷺ^(٨) قال عمرو: «كان في أصحابي قلة فخشيت أن يرى العدو قلتهم عندما يوقدون النار، ونهيتهم أن يتبعوا العدو مخافة أن يكون لهم كمين»، فأعجب ذلك رسول الله ﷺ.

(٣) انظر: الواقدي (٧٦٩/٢ - ٧٧١) بأسانيده، وابن سعد (١٣١/٢ - معلقا، وابن إسحاق، معلقا - ابن هشام (٣٥٩/٤ - ٣٦٠)، ومغازي رسول الله ﷺ لعروة، ص ٢٠٧ وكلها أسانيد ضعيفة.

(٤) الفتح الرباني (١٣٩/٢١ - ١٤٠) من مرسل الشعبي، وهو إسناد ضعيف لا يخرج به.

(٥) ابن سعد (١٣١/٢) معلقا، والواقدي (٧٦٩/٢ - ٧٧١).

(٦) النساء: ٢٩.

(٧) رواه: أبو داود (رقم ٣٣٤، ٣٣٥/ك. الطهارة/ب إذا خاف الجنب البرد نيم) وصححه الألباني كما في صحيح سنن أبي داود رقم (٣٦٠ - ٣٦١)، والبيهقي في دلائله (٤٠٢/٤ - ٤٠٣) وسننه (٢٢٥/١ - ٢٢٦)، وقال عنه محققا زاد المعاد (٣/٢٨٨): «وسنده قوي، وعلقه البخاري في صحيحه (٣٥٨/١) وقواه الحافظ وابن حبان في صحيحه - الموارد ص ٢٠٢ وصححه، والحاكم في المستدرک (١٧٧/١) وصححه ووافقه الذهبي، وحسنه المنذري: وأحمد في المسند (٢٠٣/٤) بإسناد فيه ابن هبة، وانظر: تفسير ابن كثير (٢/٢٣٥).

(٨) رواه ابن عساکر في تاريخ دمشق (١٣/٢٥٤ ب)، وابن حبان في صحيحه كما ذكر ابن حجر في الفتح (١٦/١٩٥) شرح الحديث رقم ٣٦٦٣.

فوائد فقهية في أحداث هذه السرية:

- (١) إن في خبر تأمير عمرو بن العاص على جيش فيه أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) دليلا على جواز تأمير المفضول على الفاضل، إذا امتاز المفضول على الفاضل بصفة تتعلق بتلك الإمارة أو الولاية^(٩). فعمرو خير حرب.
- (٢) وفي حديث تيمم عمرو جواز التيمم لمن يتوقع الهلاك من استعمال الماء البارد.
- (٣) وفيه جواز صلاة التيمم بالمتوضئين.
- (٤) جواز الاجتهاد في زمن الرسول ﷺ كما في خبر تيمم عمرو وصلاته وهو جنب^(١٠).

المبحث الثاني: سرية أبي حذرد إلى الغابة:

بلغ رسول الله ﷺ أن رجلا يقال له قيس بن رفاعه أو رفاعه بن قيس أقبل في عدد كثير حتى نزلوا الغابة يريد أن يجمع قيسا على محاربة رسول الله ﷺ، وكان ذا اسم وشرف في جُشْم، فدعا رسول الله ﷺ عبد الله بن حذرد الأسلمي ورجلين من المسلمين ليخرجوا اليه، فخرجوا وتمكن ابن حذرد من قتل رفاعه بن قيس، وهرب قومه، فأخذوا ما قدروا عليه من النساء والأولاد وما خف معهم من أموالهم واستاقوا إبلا عظيمة وغنما كثيرة. وجاءوا بها إلى رسول الله ﷺ ومع ابن أبي حذرد رأس رفاعه، فأعطاه الرسول ﷺ ثلاثة عشر بعيرا من تلك الإبل^(١١).

وذكر الطبري^(١٢) أن هذه السرية كانت في شعبان سنة ثمان من الهجرة، وأميرها أبو قتادة.

(٩) انظر ابن حجر: الفتح (١٦/١٩٦) شرح الحديث (٤٣٥٨).

(١٠) انظر: زاد المعاد (٣/٣٨٨ - ٣٨٩).

(١١) رواه ابن إسحاق كما عند ابن كثير في البداية (٤/٢٤٩ - ٢٥٠) وإسناده ضعيف لأن فيه جعفر ابن عبد الله بن أسلم، حيث لم يذكر أنه سمع من أبي حذرد، ومع ذلك فهو مقبول كما قال ابن حجر، يعني حيث يتابع وإلا فهو لين، ولم يتابع هنا، ولذا ضعف الإسناد. ورواه ابن هشام في السيرة (٤/٣٦٧ - ٣٦٩) من حديث ابن إسحاق، وأهم فيه ابن إسحاق اسم من حدثه. ورواه أحمد (٦/١١ - ١٢) من غير طريق ابن إسحاق. قال الهيثمي في المجمع (٦/٢٠٧): «وفيه راو لم يسم وبقيته رجاله ثقات»، والواقدي (٢/٧٧٧) والبيهقي في الدلائل (٤/٣٠٣ - ٤) من طريق ابن إسحاق كما جاء في البداية لابن كثير.

(١٢) التاريخ (٣/٣٤) معلقا. فهو إذن ضعيف.

المبحث الثالث: سرية أبي قتادة إلى بطن إضم (١٣):

بعث رسول الله ﷺ سرية إلى إضم فيها أبو قتادة ومُحَلَّم بن جَثَامَة بن قيس حتى إذا كانوا ببطن إضم مر بهم عامر بن الأَضْبَط الأشجعي، فسلم عليهم بتحية الإسلام، فأمسكوا عنه، ومع ذلك حمل عليه محلم فقتله لشيء كان بينهما، وأخذ بعيره ومثاعه، وفي ذلك نزل قول الله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتيئنا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا...﴾ (١٤) ﴿١٥﴾. وقيل إن رسول الله ﷺ قد رفض أن يستغفر لمحلم عندما طلب منه ذلك وهم بحنين (١٦).

وقالوا إنه عندما مات بعد سبعة أيام من هذا دفنوه فلفظته الأرض مرتين فما كان من قومه إلا أن وضعوه بين جبلين، ثم رصوا فوقه الحجارة حتى واروه، فقال الرسول ﷺ عندما بلغه ذلك: «والله إن الأرض لتطابق على من هو شر منه، ولكن الله أراد أن يعظكم في حُرْم ما بينكم بما أراكم منه» (١٧).

وقد ذكر المحدثون أكثر من سبب في نزول هذه الآية. فقد روى البخاري (١٨) أنها نزلت في مسلمين مر بهم رجل في غنيمته وألقى إليهم

(١٣) الوادي الذي تجتمع فيه أودية المدينة، وقالوا: ماء يطؤه الطريق بين مكة واليمامة عند السمينة (معجم البلدان ٢٨١/١). وقالوا: واد يشق الحجاز حتى يفرغ في البحر عند المدينة، وهو لأشجع وجهية. وعند ابن سعد: الطبقات (١٧٩/٣) أن بطن إضم هي فيما بين ذي حشب وذي المروة وبينها وبين المدينة ثلاثة برد.

(١٤) النساء: ٩٤.

(١٥) من رواية ابن إسحاق بإسناد حسن - ابن هشام (٣٦٣/٤ - ٣٦٤) وعند الواقدي بإسناد متصل (٧٩٧/٢) وابن سعد (١٣٣/٢) معلقا، أن أمير السرية كان أبوقتادة بن ربيعي الانصاري، ويفهم ذلك من سياق ابن إسحاق. وروى الطبري في تفسيره (٧٢/٩/شاكراً) طرفاً منه بإسناد متصل ولكن فيه عنمة ابن إسحاق.

(١٦) ابن إسحاق، بإسناد حسن - ابن هشام (٣٦٥/٤ - ٣٦٦)، والطبري في تفسيره (٧٢/٩/شاكراً) بإسناد متصل، و لكن فيه عنمة ابن إسحاق.

(١٧) رواه الطبري في التفسير (٧٢/٩/شاكراً) بإسناد متصل فيه عنمة ابن إسحاق ورواه ابن إسحاق بإسناد مرسل وضعيف لأنه أهم من حدته وأوقفه على البصري - ابن هشام (٣٦٦/٤)، ورواه البيهقي في الدلائل (٣١٠/٤) برسلاً موقوفاً على البصري من غير طريق ابن إسحاق وفيه اختلاف يسير عن حديث ابن إسحاق.

ورواه موسى بن عقبة عن الزهري وشعيب عن الزهري متصلًا إلى قبيصة بن ذؤيب - من أبناء الصحابة، وله رؤية - إلا أنه لم يسم محلها ولا عامرا - ابن كثير (٢٥٢/٤).

(١٨) الفتح (١٧/١٢٥) ح (٤٥٩).

السلام، فقتلوه، وأخذوا غنيمته. ورواه بنحو مثل رواية البخاري: أحمد^(١٩) والترمذي^(٢٠) والحاكم^(٢١).

وروى البزار^(٢٢) بسنده إلى ابن عباس أنها نزلت في المقداد بن الأسود عندما بعث في سرية وتفرق العدو وبقي رجل معه مال كثير، وشهد أن لا إله إلا الله، فقتله المقداد، فقال رسول الله ﷺ للمقداد: «كان رجل مؤمن يخفي إيمانه مع قوم كفار، فأظهر إيمانه فقتلته، وكذلك كنت تخفي إيمانك بمكة قبل».

ويبدو من هذه التفسيرات أن الحادثة قد تكررت، وأن الآية نزلت في غير واحد^(٢٣).

وكانت هذه السرية في أول شهر رمضان سنة ثمان من الهجرة^(٢٤). وذكر الواقدي^(٢٥) عن سبب بعث هذه السرية أن رسول الله ﷺ عندما أراد غزو مكة بعث أبا قتادة في ثمانية نفر إلى بطن إضم ليظن الظان أن رسول الله ﷺ متوجه إلى تلك الناحية، ولتذهب بذلك الأخبار.

فائدة و دروس في هذه السرية

١ - إن في قول الرسول ﷺ للمقداد: «كذلك كنت تخفي إيمانك قبل» لفظة كريمة إلى أنه لا ينبغي للإنسان إذا اجتمعت له أسباب القوة أن ينسى أيام ضعفه، فإنه إن فعل استبد به الغرور، وملكه الأشر والبطر^(٢٦).

(١٩) المسند (٤/١٥٣/شاكري) بإسناد صحيح.
(٢٠) السنن (٨/٣٨٦/تحفة الأحوذى) بإسناد حسن، وانظره في صحيح الترمذي للألباني (٣/٤٠/ح ٢٤٢٦) وصححه الألباني.

(٢١) المستدرک (٢/٢٣٥) وصححه.

(٢٢) نقله عنه ابن كثير في التفسير (٢/٣٣٨).

(٢٣) انظر: تفسير ابن كثير (٢/٣٣٨) حاشية المحققين.

(٢٤) من رواية ابن سعد (٢/١٣٣) بدون إسناد، والواقدي (٢/٧٩٧) بإسناد متصل، وما يؤكد هذا التاريخ أن الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن اختصما في عامر بن الأضبط عند رسول الله ﷺ وهو بحنين: عيينة يطلب بدم عامر، وهو يومئذ رئيس غطفان، وابن حابس يدفع عن معلم لكانه من خندف، وأخيرا قبل عيينة الدية، يدفع نصفها في سفرهم ذاك والنصف الآخر إذا رجعوا.
(رواه ابن إسحاق بإسناد حسن - ابن هشام (٤/٣٦٤ - ٣٦٥) وانظر الإصابة (٢/٢٩٢).

(٢٥) المغازي (٢/٧٩٦ - ٩٧).

(٢٦) انظر حاشية، محققى تفسير ابن كثير (٢/٣٣٨).